جامعة قطر
QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia & Islamic Studies
مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
Journal of College of Sharia & Islamic Studies
مجلة علمية محكمة
Academic Refereed Journal
VOL . (29) 2011 : العدد (29) 2011م

مقاصد القرآن الكريم
عند الشيخ ابن عاشور

تأليف
د. هيا ثامر مفتاح
رئيس قسم أصول الدين
جامعة قطر

مقاصد القرآن الكريم

الحمد لله الذي عَلَّمَنا القُرْآنَ، وفضّلنا على سائر خلقه بتعليم الحكمة والبيان. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذي الفضل والإحسان. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله ، خاتم النبيين ، وسيد الخلق أجمعين ورحمة الله للعالمين ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه واستن بسنته ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين. أمّا بعد :

فللقرآن الكريم خصائص ومزيات لم يحظ بها غيره كتاب إلهيا كان بله أن يكون وضعياً ، ومهما صعّد الناظرون فيه عيونهم، وأرجعوا أبصارهم، فإن ما يحصونه من تلك المزيات وما يقفون عليه من هذه الخصائص هو مما غاب من عظيم أسراره كرذاذ المد من عتيّ أمواج البحر، وذلك على كثرة ما رأوا، وجمال ما اطلعوا عليه!

وعلى الأيام تتوارد الأنظار، وتكثر الأقلام ، فيقع الخلاف فيما يدون بحسب ما وقع الخلاف في مواقع النظر، ومواضع الرؤية ، غير أنهم اتفقوا

([1]) سورة الأنبياء آية: 17.

جميعا على أنه: كتاب الله الخاتم لرسالاته، ومنهاجه الدّائم لإصلاح مخلوقاته، وهو المعجزة الكبرى الخالدة ما دامت السماوات والأرض،.. لا تنقضي عجائبه، ولا يضل طالبه, تعهده -جل شأنه- بالحفظ والرعاية فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، وقد حفظه الله تعالى؛ فهيأ له صدور الحافظين صغاراً وكباراً، وجعل النفوس تستعذب تلاوته وسماعه مرارًا وتكرارًا، هو دستور قويم، وضعه الله للخلق كافة؛ لينظم به شؤون حياتهم، ويبيّن لهم ما يصلح أحوالهم وأمورهم في الدارين، ويهديهم للتي هي أقوم، قال- عز وجل:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[1].

ولقد جمع القرآن الكريم ما تفرق في الكتب السابقة من أحكام كريمة ووصايا عظيمة، واستوعب ما ظهر من حوادث جديدة في الحياة البشرية الحديثة؛ مع بيانه أصول الدين وأحكام الشريعة وركائز الآداب والأخلاق، واستيعابه كثيرا من تفاصيل الحياة القديمة ما يحمل العبرة ويقدم العظة، ولم يخل من إشارات كونية، ولمحات قدسية، لمن يرغب من أهل التدقيق والتدبر، فكان كتاباً جامعاً لكل فن، مناسباً لكل نفس، حتى كأنه لم يغادر صغيرة ولا

(1) سورة الإسراء آية: 9.

كبيرة إلا أحصاها، على أن سطوره لم تجاوز سطور مجلد صغير الحجم، قليل العبارة، فكان ذلك لونا من أبدع ألوان إعجازه، وآية من أجلى آياته للناظرين، أفسحت لذوي النظر متسعاً كبيراً يتأملون فيه كيف حوى هذا النظمُ القليل لفظُه هذا الفضاءَ الكثيرُ جدا معناه .. وأبهرهم أنه لم يكتف بالكلي دون الجزئي، ولم يجمل في موضع يقتضي التفصيل، ولم يختصر في مقام يقتضي البسط والبيان .. بل جاءت عباراته مشيدة كأبدع ما يمكن أن يكون، فلا يعوزه تفصيل ولا اختصار، ولا يمكن معه إطناب ولا إيجاز، فأعادوا فيه النظرة تلو النظرة .. فإذا به يكشف عن منهاج في التدوين بديع، لا تزال الأعين دائرة في تصفح معالمه، والنفوس حيرى في دراية مراسمه، يضمِّن الكلياتِ تفاصيلَ ما يهم السامع، ويجمل الجزئيات على نحو لا يمل القارئ، مرتبا كل ذلك في نسق مقاصدي مبهر، بحيث تُسلمُ فيه جزيئاتُ النص بذورَ المعنى إلى الجزيئات التي تليها فتخرجه ثمرا يانعا تفوح رائحته في الجزئيات التي تليه، ومن ثم تظهر أسرار التكرار فيه رغم الإيجاز، وتبدو دلائل الترابط بين ثناياه لدى علماء المناسبات، ولا ينفض عنه من رام وحدته الموضوعية، ولا الذي خاض بحار تفاسيره التحليلية.

هذا البيان هو سر ما عرف اصطلاحاً بـ"مقاصد القرآن" وهي – بعيداً عن التعريفات التعليمية – الأهداف الكبرى التي ساق الله عز وجل النظم القرآني

تبياناً لها، وجعل من كليات القرآن وجزئياته، ومن تكراره، وتناسب سوره وآياته، ومن وحدته الموضوعية، ودقائقه التحليلية .. جعل من كل ذلك ثوب عرس يحكي في مجمله هذه المقاصد والأهداف الكبرى.

إن رؤية "مقاصد القرآن الكريم" لم تبدُ في دراسات العلماء على نحو فني متخصص إلا بعد قرون من مطالعة القرآن الكريم على نحو تحليلي وموضوعي وبعد درس عميق لترابط موضوعاته وسوره وآياته، وبعد إيغال بعيد في استكناه كلياته وحصر جزئياته،.. وقد كان الدرس شاقاً، والعمل دؤوباً، لم يخل منه عصر، بل يكاد ألا ينحاش عنه دارس.. وكلٌ امرئ يرمي بسهم من كنانته فتصيب من الهدف ما يستطيع، وكل ناظر يكثر التأمل على النحو الذي يفتح الله عليه به.

ومن هذه الدراسات الموسعة تكونت ملامح الرؤية في أذهان التالين، فتكشفت على نحو علمي مدون، بعد أن كانت إلهاماً ربانياً يلهمه الله من شاء من صالحي عباده وأوليائه.

إن هذا البيان السابق لنشأة ونمو فكرة "مقاصد القرآن الكريم" ليرسم لنا حدين لا يمكن إهمالهما أو الافتئات عليهما:

أما <u>الحد الأول</u> : فيكمن في سر نشأتها القائمة على ما بينا من دراسات

علمية منهجية واسعة مؤصلة، فلا يمكن بحال أن تعتني دراسة بمقاصد القرآن الكريم تفصيلا أو إجمالاً، أخذاً أو رداً، إلا ولصاحبها دراية بمباحث التفسير وأصوله، وعلوم القرآن وفروعها، بل وأن يتناول دراسته المقاصدية من هذا المنطلق العلمي المؤصل غير حائد عنه ولا منحرف .

وأما الحد الآخر: فيكمن في مآل البحث المقاصدي الذي يهدف إلى فتح آفاق تفسيرية أبعد مدى، وأرجى نفعا، وأقرب فهماً ووعياً إلى كتاب الله تعالى، مما يحتم على هذا المآل أن ينحاش بالدرس المقاصدي عن أن يكر على نصوص القرآن الواضحة بالمخالفة، أو أحكامه القاطعة بالبطلان.

وكيف يعاني النظر في مقاصد القرآن من لم يقف على أسرار بيانه، ومفردات أحكامه، أم كيف تتأتى مقاصد هي لآي القرآن مخالفة، ولأحكامه مبدلة؟!!

وعلى ضوء ما تقدم ، تغدو مقاصد القرآن الكريم مصدر سعادة دائمة للأمة التي آمنت به ، والجماعة التي التفت حوله ؛ الأمر الذي يفسر اهتمام العلماء والدارسين بتناولها إظهاراً لجماله وروعته وتبياناً لحكمه وأهدافه.

وقد حاولت أن أشارك في هذا الموضوع بهذا البحث المتواضع الذي جاء

بعنوان : مقاصد القرآن عند الشيخ ابن عاشور .

وهو لمحات لرؤية هذا الإمام الكبير، التي تجاوزت في حقيقتها أن تكون مجرد "رؤية" إلى الحد الذي تبلغ أن تكون به "مشروعاً".. أسس الرجل بناءه في كتابه المفرد للمقاصد، وشيد هذا البناء صرحاً عالياً يناطح الآفاق في تفسيره المعروف.

تمهيد:

ليس بعيدا القول بأن مقاصد القرآن الكريم من الموضوعات التي استجد طرحها على موائد البحث في الدراسات القرآنية المعاصرة. ومن ثم لم نجد كثيراً من العلماء تعرض لبيانها بياناً على النسق العلمي الذي يبدأ بتعريفها ثم تأصيلها تأضيلا كلياً ، ثم الاستطراد في سرد تقسيمها وأحكامها والتأصيل لكل ذلك بما يناسبه، كما هو معلوم من الدراسات العلمية الناضجة ؛ كما أن الناظر إلى الدراسات المقاصدية القديمة والمعاصرة ، يجدها تمحورت أساساً حول الكليات الخمس بمراتبها الثلاث: الضرورية والحاجية والتحسينية، ولا تخرج عن هذه الدوائر، حيث تركز البحث المقاصدي حول إثباتها وتفسيرها وتقسيمها والترجيح بينها عند التعارض.

وهذا ما برز جلياً على نحو متتابع لدى ثلة من العلماء، بدءاً بإمام الحرمين الجويني ثم الغزالي ثم العز ابن عبد السلام وتلميذه القرافي ، حتى جاء أبو إسحق الشاطبي الذي أشبع المقاصد بحثاً واستقراءً وتفسيراً وتحليلا في كتابه الموافقات.

غير أن الشاطبي لم يواف من يتمم مسيرته، ويستكمل البحث من بعده، إلى أن جاء الطاهر ابن عاشور، فجدد البناء الذي كادت تطمسه عوادي الزمن وزاد إضافات جديدة.[1]

فإذا عدنا إلى مبحثنا الأول الذي نحن بصدده، وهو محاولة ضبط تعريف

(1) المدخل إلى مقاصد القرآن – د. عبد الكريم حامدي – مكتبة الرشد – الرياض – الطبعة الأولى 1428هـ 2007م .

منهجي لمقاصد القرآن الكريم ، فتساءلنا أولاً : ما هي المقاصد ؟

وجدنا أن المقصد في اللغة : يعني الغاية والهدف ، جاء في « معجم لغة الفقهاء » المقصود بفتح الميم اسم مفعول من قصد إليه توجه .

والمقصود الغاية التي يريدها المتصرف، ومقصود الشارع غايته وهدفه.

ومن ثم نجد أن العلامة بديع الزمان النورسي قد نوعها فقال: «إن المقاصد الأساسية من القرآن، وعناصره الأصلية أربعة : التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة».

وعلى هذا فيمكن تعريفها بأنها: «الحقائق التي نزل القرآن من أجل إثباتها، وعناصره المبدئية الكبرى وهي: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة»[1].

بينما يقول ابن عاشور في معرض الوصول إلى تعريف اصطلاحي لها: غرض المفسر من التفسير بيان ما يصل إليه أو يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى، ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم ، أو ما يخدم المقصد تفصيلا و تفريعاً مع إقامة الحجة على ذلك .

([1]) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، لسعيد النورسي، ترجمة: أ. إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، 1994م، دار سوزلر، القاهرة، (23/5).

ويعلق أحد الباحثين على كلام ابن عاشور بقوله : يتبين لنا من عبارة ابن عاشور هذه أن عمل المفسر وفهمه إنما يجب أن يدور مع المقصد ومع كل ما يمكن أن يسهم في إيضاحه وجلائه فالمقصد القرآني هو قطب الرحى في حركة المفسر بمختلف نواحيها ومستوياتها ، فبحوث المفسر وتحليلاته اللغوية أو البلاغية أو الكلامية أو التشريعية أو الاجتماعية ، كل ذلك يجب أن يصب في خدمة المقصد القرآني.[1]

ونحن إذا تجاوزنا ما نوعه النورسي – رحمه الله – إلى نظرة أوسع رؤية، نستطيع منها أن ننظم تعريفا يشمل رؤى المقاصد المختلفة سواء التي عددها النورسي أو التي عددها غيره من قبلُ ومن بعدُ، فنقول إنها:

«الثمرات العامة والأهداف الكلية والغايات الجامعة التي تدل عليها جملة متعددة من الآيات القرآنية».

وأصل هذا التعريف أنك إذا تأملت المعاني الجزئية المبثوثة في الآيات القرآنية وجدتها ذات ثمرات وغايات هي ما يمكن أن نعدها "مقاصدها" التي تنتظم جميعا لتحقيقها.

(2) إسلامية المعرفة – مجلة فكرية فصلية – المعهد العالمي للفكر الاسلامي ص90- العدد23- السنة السادسة – 1421هـ 2001م)

وربما كانت هذه "المقاصدية" صريحة بنص الكتاب الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1]. فإن النفي الذي يعقبه الاستثناء من أقوى دلالات العموم كما يقول الأصوليون.

وكما بينت هذه الآية أن الغاية من الخلق هي التوحيد، فإن في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾[2]. بيان أن ثمرة نزول الماء من السماء ليلة بدر هو طهارة الحس وتزكية النفس.

وسرِّح ناظريك وتأمل آيات الكتاب العزيز من أوله لآخره ترى "المقاصدية" التي نرمي إليها واضحة جلية تكاد ألا تخلو منها سورة، أو ينفلت منها معنى.

والخالق الحكيم كان قادراً على قطع أحكامه دونما إشارة لمقاصدها، وما تصبو إليه ، ولكن لمزيد حكمة منه سبحانه كشف لعباده بالتصريح تارة والتلويح أخرى عن كثير من مقاصد تلك الأحكام، موسعا مجال الاجتهاد ليشمل

(1) سورة الذاريات آية: 56.
(2) سورة الأنفال آية: 11.

استنباط هذه المقاصد كما تستنبط الأحكام التي تهدف إليها، ومعلماً عباده حكمة التعليل وحسن القصد.

يقول الدكتور محمد سالم: «يعلمنا الله من خلال تعليله لأحكامه أن تكون أحكامنا مبررة حتى لا نسوق من أحكامنا ما هو جزافي غير مصحوب بحيثياته المنطقية المصححة له ... وإن كان حق الله عز وجل على عباده أن يطاع طاعة مطلقة تتمثل فيها جميع أوامره وتجتنب جميع نواهيه فإذا ذكر لهم مع ذلك ما يقنع أنفسهم وعقولهم بسلامة الحكم كان ذلك ولا ريب رحمة منه بعباده([1]) .

وبهذا نكون قد وقفنا على تعريف المقاصد، وموضعها من الكتاب الكريم، وحكمة الله تعالى في اعتناء القرآن بها، بياناً وتعليلا، وندخل في الفصول التالية من البحث إلى المقاصد في فكر العلامة الطاهر ابن عاشور.

المقاصد في فكر ابن عاشور

احتلت قضية المقاصد في فكر الشيخ ابن عاشور مكاناً مميزا سواء في تفسيره (التحرير والتنوير) أو في كتابه (مقاصد الشريعة) تبلورت في نظرته الشمولية التأصيلية في النظر والتطبيق من خلال تناوله لهذه القضية.

(3) مقالتان في التأويل د. محمد سالم أبو عاصي، دار الفارابي ، الطبعة الثانية ص37

فهو يرى أولاً أن القرآن الكريم أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم.

ثم يترقى الشيخ ابن عاشور في بحثه إلى استجلاء الظروف التي هيأها الله تعالى للقرآن الكريم كيما يصح القصد منه على النحو الذي ذكر، فيقول:

لقد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مظهرا لوحيه ومستودعاً لمراده لحكمة علمها: منها كون لسانهم أفصح الألسن وأسهلها انتشاراً، وأكثرها تحملا للمعاني مع إيجاز لفظه ، ولتكون الأمة المتلقية للتشريع والناشرة له أمة قد سلمت من أفن الرأي عند المجادلة ، ولم تقعد بها عن النهوض أغلال التكالب على الرفاهية ، ولا عن تلقي الكمال الحقيقي إذ يسبب لها خلطة بم يجر إلى اضمحلاله.([1])

وحين يتناول الشيخ ابن عاشور مقاصد الشريعة فإنه يجعل القرآن الكريم عمادها الأول؛ إذ لاشك أن قضية المقاصد قرآنية البدء والمنتهى وإن احتلت مقاصد الشريعة مركز الصدارة في الفكر الإسلامي والطرح العلمي.

(1) التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور – الدار التونسية للنشر – تونس 1984- 39\1

المقاصد الأصلية للقرآن عند ابن عاشور :

نص الشيخ في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير) على أنه استغرق في تدوينه أربعين سنة، لم تكن شواغل الحياة منها بأكثر من انشغاله بهذا التفسير الكبير، مما يؤكد عمق البحث القرآني لدى الشيخ رحمه الله، ويعطي قدرا من الثقة غير قليل بما يقدمه من دراسات قرآنية لاسيما تلك التي تعتمد على استقراء يحتاج إلى مزيد من الوقت والمجهود. وهو الأمر الذي يبدو جليا فيما ذهب إليه الشيخ رحمه الله في مقاصد القرآن الكريم؛ فقد استقرأها فوجدها «ثمانية»[1] . نستعرضها إجمالا ثم نقف مع كل منها وقفة تفصيلية:

المقصد الأول : إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح

المقصد الثاني : تهذيب الأخلاق

المقصد الثالث : التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة

المقصد الرابع : سياسة الأمة

المقصد الخامس: القصص وأخبار الأمم

المقصد السادس: التعليم بما يناسب حال المخاطبين

المقصد السابع : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير

المقصد الثامن : الإعجاز بالقرآن

(1) التحريروالتنوير ، ج1 ، ص: 39-41.

المقصد الأول

إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح.

وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل؛ فالتوحيد عند ابن عاشور يعد أهم مقاصد القرآن الكريم، وهو جوهر العقيدة، وأول أساس بني عليه صرح الإسلام، وهو أصل الأصول، ومناط القبول، وهو العروة الوثقى التي لا انفصام لها قال – تعالى – : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[1]

ولذا عني القرآن الكريم بإثبات وحدانية الله تعالى وتأكيد وجوده، وذلك بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة والحجج القوية الدافعة التي تخاطب الفكر والعقل والوجدان، وتلفت الأنظار بطريقة سهلة ميسرة تتناسب مع عقول البشر ومستوياتهم؛ فتخاطب الجميع: كلاً بما يناسبه؛ بهدف الإرشاد والتوجيه؛ لتصحيح عقيدة الألوهية وعبادة الله وحده لا شريك له.

ويرى ابن عاشور أن القرآن الكريم قد سلك مسالك متنوعة وأساليب

(1) سورة لقمان آية : 22.

متعددة ؛ لإقرار حقيقة التوحيد ، وإثبات صفات الكمال المطلق لله رب العالمين.

والمتأمل لآيات القرآن الكريم يرى أن الدعوة إلى توحيد الله – تعالى– من أهم مقاصده فلا تخلو منها سورة، بل لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة؛ تصريحًا أو تلميحًا؛ (لأن عقيدة التوحيد هي غاية الغايات، وسبيل الإصلاح المنشود فمتى آمن الإنسان بأنه أثرٌ للخالق، كان بينه وبين خالقه ما بين الصانع والمصنوع من الصلة والترابط، وكان بينه وبين المصنوعات جميعًا ما بين الآثار المتعددة للمنشئ الواحد وهو الله – تعالى– ومتى امتلأت النفوس بحب هذه العقيدة الإيمانية، سعدت، وفازت وسادت)[1].

وفي تحريره يذكر ابن عاشور: أن الله تعالى خلق هذا العالم ليكون مظهرا لكمال صفاته تعالى الوجود، والعلم، والقدرة.

وجعل قبول الإنسان للكمالات التي بمقياسها يعلم نسبة مبلغ علمه وقدرته من علم الله تعالى وقدرته.

وأودع فيه الروح والعقل اللذين بهما يزداد التدرج في الكمال ليكون غير قانع بما بلغه من المراتب في أوج الكمال والمعرفة، وأرشده وهداه إلى ما

([1]) ينظر: الرسالة الخالدة، أ. عبد الرحمن عزام، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - الكتاب السادس عشر، 1384هـ/1964م، ص(23-25) باختصار.

يستعين به على مرامه ليحصل له الارتقاء العاجل[1]

و من ثم مثل ابن عاشور حال جميع الذين اتخذوا الأصنام من دون الله وحال من ماثلهم من مشركي قريش في اتخاذهم ما يحسبونه دافعا عنهم وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه، بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتا تحسب أنها تعتصم به من المعتدي عليها فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأضعف تحريك فيسقط ويتمزق. كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت/41).

والمقصود بهذا الكلام مشركو قريش، وتعلم مساواة غيرهم لهم في ذلك بدلالة لحن الخطاب، والقرينة قوله بعده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت: 42] فضمير (اتَّخَذُوا) عائد إلى معلوم من سياق الكلام وهو مشركو قريش.

وجملة ﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾ حال من (الْعَنْكَبُوتِ) وهي قيد في التشبيه. وهذه الهيئة المشبه بها مع الهيئة المشبهة قابلة لتفريق التشبيه على أجزائها فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها وتزول بأقل تحريك، وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف وهو السكنى فيها وتوهم أن تدفع

(1) التحرير و التنوير – ابن عاشور- 1/ 182.

عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم. وهو تمثيل بديع من مبتكرات القرآن كما سيأتي قريباً عند قوله.[1]

بذا يقرر ابن عاشور مقصداً عظيماً من مقاصد القران وهو إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح.

ولا يخفى أن من مقصد إرساء قواعد التوحيد بيان النبوة، والتنويه بالرسول المنزل عليه القرآن، وإظهار دلائل صدقه، ورفع شأنه ﷺ، وفى ذلك يقول الله- تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾[2] ومن مقتضيات تلك العقيدة ، الإيمان برسالات الله تعالى كلها دون تفريق بين أحد منهم ، فكان ذلك دليلاً قاطعًا وبرهاناً ساطعًا على ربانية المنهج ووضوح معالمه، إذ لو لم تكن كذلك، لما نادت بالإيمان برسل الله تعالى جميعًا: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥ ﴾[3] وهذا الإيمان جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم.

فالإيمان بالبعث والجزاء من أركان الإسلام التي لا يصح إيمان المسلم ولا

---

(1) المرجع السابق (ج172/20)
(2) سورة الفرقان آية: 1 .
(3) سورة البقرة آية: 285.

تستقيم عقيدته إلا بالتصديق بهما تصديقاً لا ريب فيه؛ لأنه لا ينبغي أن يظن الإنسان العاقل أنه يعيش في الدنيا حسب أهوائه وإشباع غرائزه وملذاته، ثم يتساوى في الآخرة مع من يلتزم بمنهج الله وصراطه المستقيم. والإيمان بالبعث والجزاء له دور بارز في إصلاح الفرد وتهذيب المجتمع وتربية ضمير الأمة المسلمة.

وعليه فقد أرسى القرآن الكريم دعائم عقيدة واضحة المعالم، تقوم على أساس التوحيد الخالص لله تعالى، بعيدة عن تثنية وتثليث الوثنيات القديمة التي لا تقوم على برهان صادق ولا يقبلها عقل سليم.

وهذه العقيدة ربانية المصدر لا تتلقى إلا من الوحي الإلهي ، ليس لأحد كائناً من كان أن يغير أو يبدل فيها بالزيادة أو النقصان.

يقول ابن عاشور : وهو يوضح فلسفته في فهم هذا المقصد الرباني والذي يرى فيه أن المولى عز وجل معنى بصياغة هذا الإنسان ليحسن التعامل مع مفردات الكون وكانت أولى أوليات صياغته حسن التوجه للخالق الواحد وهو الله بالعباده : كما أنه جعل في نظامه في هذا العالم متصل الارتباط بين أفراده فأمرهم بلزوم آداب المعاشرة والمعاملة لئلا يفسد النظام ، ولمراقبة الدوام على ذلك أيضاً شرعت العبادة لتذكر به ، على أن ذلك التذكر دوام الفكر في

الخالق وشؤونه وفي ذلك تخلق بالكمالات تدريجاً ، فظهر أن العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مبدأ ونهاية وبه يتضح معنى قوله تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(الذاريات/ 56).

فالعبادة على الجملة لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من الخلق، ولما كان سر الخلق والغاية منه خفية الإدراك عرفنا الله تعالى إياها بمظهرها وما يحققها جمعاً لعظيم المعاني في جملة واحدة وهي جملة: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾.

ولا شك أن داعي العبادة التعظيم والإجلال وهو إما عن محبة أو عن خوف مجرد، وأهمه ما كان عن محبة لأنه يرضي نفس فاعله ولذلك قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران/31) فلذلك يشعر بأن اتباع الشريعة يوجب محبة الله وأن المحب يود أن يحببه حبيبه.

وإلى هذا النوع ترجع عبادة أكثر الأمم ، ومنها العبادة المشروعة في جميع الشرائع لأنها مبنية على حب الله تعالى.([1])

وفي تفسيره لمعنى قوله تعالى في سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

([1]) التحرير والتنوير- ابن عاشور -182/1

خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1]

يقول : جمعت هذه الآيات الخمس أصول الصفات الإلهية ، فوصف (الرب) يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف ﴿الذي خلق﴾ ووصف ﴿الذي علم بالقلم﴾ يقتضيان صفات الأفعال ووصف ﴿الأكرم﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقص. هذه صورة الإله المعبود والمقصود إيصالها إلى العباد المخاطبين بالقرآن في نظر ابن عاشور.([2])

على ضوء هذه الآيات وما شابهها قرر العلامة ابن عاشور مقصداً من أهم مقاصد القران وهو إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح.

❁❁❁

([1]) سورة العلق – الآيات 1-5
([2]) التحرير والتنوير 440/30

المقصد الثاني

تهذيب الأخلاق

لا ريب أن العفو من مكارم الأخلاق العظمية ولذا أمر به القران الكريم بصيغة مبتكرة لم يسبق إليها كما قال تعالى﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الآيات.

قال ابن عاشور : فمعنى خذ العفو: عامل به واجعله وصفاً ولا تتلبس بضده. وأحسب استعارة الأخذ للعرف من مبتكرات القرآن ، ولذلك ارجع أن البيت المشهور وهو:

خذي العفو مني تستديمي مودتي .. ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

هو لأبي الأسود الدؤلي، وأنه اتبع استعمال القرآن، وأن نسبته إلى أسماء بن خارجة الفزازي أو إلى حاتم الطائي غير صحيحة.

والعفو الصفح عن ذنب المذنب وعدم مؤاخذته بذنبه وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: 219] وقوله ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: 109] في سورة البقرة، والمراد به هنا ما يعم العفو عن المشركين وعدم مؤاخذتهم بجفائهم ومساءتهم الرسول والمؤمنين.

وقد عمت الآية صور العفو كلها: لأن التعريف في العفو تعريف الجنس فهو مفيد للاستغراق إذا لم يصلح غيره من معنى الحقيقة والعهد، فأمر الرسول

صلى الله عليه وسلم بأن يعفو ويصفح وذلك بعدم المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم، فلا يعاقبهم ولا يقابلهم بمثل صنيعهم كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، ولا يخرج عن هذا العموم من أنواع العفو أزمانه وأحواله إلا ما أخرجته الأدلة الشرعية مثل العفو عن القاتل غيلة، ومثل العفو عن انتهاك حرمات الله، والرسول أعلم بمقدار ما يخص من هذا العموم وقد يبينه الكتاب والسنة وألحق به ما يقاس على ذلك المبين، وفي قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ ضابط عظيم لمقدار تخصيص الأمر بالعفو.

ثم العفو عن المشركين المقصود هنا أسبق أفراد هذا العموم إلى الذهن من بقيتها ولم يفهم السلف من الآية غير العموم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال قدم عيينة بن حصن المدينة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان الحر ابن قيس من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمرو ومشاورته، فقال عيينة لابن أخيه لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال هيه يا بن الخطاب ما تعطينا الجزل.ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين أن الله قال لنبيه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف/199) وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله وفيه عن عبد الله بن الزبير قال ما أنزل الله ذلك إلا في أخلاق الناس ومن قال أن هذه الآية نسختها آيات القتال فقد وهم: لأن العفو باب آخر، وأما القتال فله أسبابه

ولعله أراد من النسخ ما يشمل معنى البيان أو التخصيص في اصطلاح يلتفت لا ينظر إلى الشيء وقد فسر ذلك في قوله تعالى ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء: 83] وهو، هنا، مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد، شبه عدم المؤاخذة على العمل بعدم الالتفات إليه في كونه لا يترتب عليه أثر العلم به لأن شأن العلم به أن تترتب عليه المؤاخذة.

و"الجهل" هنا ضد الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلهم لأن التعريف فيه للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ اتخاذ الحجر إلها سفاهة لا تعدلها سفاهة، ثم يشمل كل سفيه رأي. وكذلك فهم منها الحر بن قيس في الخبر المتقدم آنفاً وأقره عمر بن الخطاب على ذلك الفهم.

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوا عن اعتداء فتدخل في ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ، أو فعل خير وإتساماً بفضيلة فتدخل في ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ كما تقدم من الأمر بالأمر بالشيء أمر بذلك الشيء، وهذا معنى قول جعفر بن محمد: في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ، وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضاً فان الأمر يأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين[1] .

([1]) التحرير والتنوير (ج 8/398- 401)

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم/4) .

قال ابن العربي: ليس لله – تعالى– خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حيًا عالمًا قادرًا مريدًا متكلمًا سميعًا بصيرًا مدبرًا حكيمًا[1]. ولقد كان الناس قبل الإسلام يتفاضلون في الخلق والنشأة، ويتميزون في الأحساب والأنساب ناسين أنهم من أصل واحد، فلما جاء الإسلام حرص كلَّ الحرص على تقرير مبدأ المساواة بين الناس في القيمة البشرية وعدها من الأمور الأساسية التي يجب أن يدين بها كل إنسان ربه، فقد قرر أن الناس سواسية كأسنان المشط في أصل نشأتهم وتكوينهم، وأنه لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غني وفقير، لأنهم جميعًا ينحدرون من أصل واحد وهو آدم عليه السلام، وآدم من تراب، فإذا كان الأمر كذلك فلا معنى للتعالي ولا مجال للتسامي؛ فالتكريم شامل للجنس كله، فجنس الإنسان مكرم عند الله بلا تفرقة بين مجموعة وأخرى، فالإسلام ينظر إلى الجميع بمنظار واحد هو الإنسانية.

وفي ذلك يقول ابن عاشور: إن الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طرق النجاح ... وحال القرآن كحال الخطيب ، يتطرق إلى معالجة الأحوال

(1) ينظر: تفسير القرطبي (114/20)، فتح القدير (465/5).

الحاضرة على اختلافها وينتقل من حال إلى حال بالمناسبة، لذلك تكثر في القرآن الجمل المقترحة لأسباب اقتضت نزولها أو بدون ذلك، فإن كل جملة تشتمل على حكمة وإرشاد وتقويم معوج.[1]

وفي معرض شرح الآية الكريمة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2] يرى الشيخ أن المقصد من ذلك عظة المسلمين ألا يغتروا بحال الذين كفروا فتعجبهم زينة الدنيا، وتلهيهم عن التهمم بما به الفوز في الآخرة ، فان التحذير من الغايات يستدعي التحذير من البدايات، وقد صدر هذا الوعظ والتأديب ببيان مدخل هذه الحالة إلى النفوس ، حتى يكونوا على أشد الحذر منها لأن ما قررته النفس ينساب إليها مع الأنفاس[3]

ولا يخفى أن من خلال ذلك يشير العلامة ابن عاشور إلى مقصد عظيم من مقاصد القرآن ، وهو تهذيب الأخلاق.

(1) التحرير والتنوير 81/1
(2) الآية 14 من سورة آل عمران
(3) التحرير والتنوير 3/ 173

المقصد الثالث

التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة

ويؤسس هذا الجانب على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [1]

ثم يبين موقفه وفهمه لهذا المقص القرآني قائلا: ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعاً كلياً في الغالب ، وجزئيا في المهم فقوله: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المراد بهما إكمال الكليات التي منه الأمر بالاستنباط والقياس.

قال الشاطبي : لأنه على اختصاره جامع والشريعة تمت بتمامه ولا يكون جامعاً لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية.[2] كما يقول في بحث مقاصد الشريعة (....أن الشريعة جميع تصرفاتها تحوم حول إصلاح حال الأمة في سائر أحوالها وأن الزواجر والعقوبات والحدود ما هي إلا إصلاح لحال الناس؛وذلك أن من أكبر مقاصد الشريعة هو حفظ نظام الأمة وليس يحفظ نظامها إلا بسد ثلمات الهرج والفتن والإعتداء ، وأن ذلك لا يكون موقعه إلا إذا تولته الشريعة ونفذته الحكومة ، وإلا لم يزدد الناس بدفع الشر إلا شراً كما

([1]) الآية 48 سورة المائدة
([2]) التحرير والتنوير 40/1

أشار إليه قوله تعالى:﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾[1] [2]

وفي معرض شرح قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوه﴾[3] يرى الشيخ أن مقصد الشريعة هنا تنبيه لأصحاب الحقوق حتى لا يتساهلوا ثم يندموا وليس المقصود إبطال ائتمان بعضهم بعضاً. كما أن من مقاصدها دفع موجدة الغريم من توثق دائنه إذا علم أنه بأمر من الله ومن مقاصدها قطع أسباب الخصام[4]

وفي قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران /130) يرى ابن عاشور أن حكمة تحريم الربا هي قصد الشريعة لحمل الأمة على مواساة غنيِّها محتاجَها احتياجاً عارضاً. [5]

وبهذا يشر إلى التشريع وهو الأحكام عامة أو خاصة وهذا لاغرو مقصد من مقاصد القران الكريم.

([1]) الآية : 33 في سورة الإسراء

([2]) مقاصد الشريعة الاسلامية – الإمام محمد الطاهرابن عاشور-دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – الطبعة الثانية -1428هـ 2007م-ص205

[3] الآية 282 سورة البقرة

[4] التحرير والتنوير 100/3

[5] التحرير والتنوير3/ 86-87

المقصد الرابع

سياسة الأمة

وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾[1]

وكما هو متضمن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[2]

أمر الله بطاعة الله ورسوله وذلك بمعنى طاعة الشريعة فان الله هو منزل الشريعة ورسوله مبلغها والحاكم بها في حضرته وقوله ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ يعني ذويه وهم أصحاب الأمر والمتولون له والأمر هو الشأن أي ما يهتم به من الأحوال والشئون فأولو الأمر من الأمة ومن القوم هم الذين يسند إليهم تدبير شؤونهم ... وإنما أمر بذلك بعد الأمر بالعدل وأداء الأمانة لأن هذين

([1]) الآية 103 سورة آل عمران
([2]) الآية 59 سورة النساء

الأمرين قوام نظام الأمة وهو تناصح الأمراء والرعية وانبثاث الثقة بينهم.[1]

لاشك أن الشورى هى الأساس في سياسة الأمة، ولذلك يقول ابن عاشور عنها فى تفسير قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى/ 38).

من أعمال الذين آمنوا التي يدعوهم إليها إيمانهم، والمقصود منها ابتداء هم الأنصار، كما روي عن عبد الرحمان ابن زيد. ومعنى ذلك أنهم من المؤمنين الذين تأصل فيهم خلق الشورى.

وأما الاستجابة لله فهي ثابتة لجميع من آمن بالله لأن الاستجابة لله هي الاستجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه دعاهم إلى الإسلام مبلغاً عن الله فكأن الله دعاهم إليه فاستجابوا لدعوته. والسين والتاء في {استجابوا} للمبالغة في الإجابة، أي هي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردد.

ولام له للتقوية يقال: استجاب له كما يقال: استجابه، فالظاهر أنه أريد منه استجابة خاصة، وهي إجابة المبادرة مثل: أبي بكر ، وخديجة ، وعبد الله بن مسعود ، وسعد بن أبي ، وقاص ونقباء الأنصار أصحاب ليلة العقبة.

وجعلت ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ عطفاً على الصلة. وقد عرف الأنصار بذلك إذ كان التشاور في الأمور عادتهم فإذا نزل بهم مهم اجتمعوا وتشاوروا

([1]) التحرير والتنوير 98/5

وكان من تشاورهم الذي أثنى الله عليهم به هو تشاورهم حين ورد إليهم نقباؤهم وأخبروهم بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم[1]

بذا يؤصل ابن عاشور لمقصد من مقاصد القرآن وهو سياسة الأمة.

❁❁❁

(1) التحرير والتنوير (ج25/ 169-170).

المقصد الخامس

القصص وأخبار الأمم

القصة القرآنية ذاتها ليست مقصودة في القرآن كما يرى ابن عاشور بل هي توظف لحل مشكلة أو التدليل على قضية وهي تحمل هذا المقصد فتصير القصة القرآنية مقصداً بإعتبار ما ترتب عليها وما تؤول إليه.

يقول الشيخ ابن عاشور في هذا : إن في تلك القصص لعبراً جمة وفوائد للأمة؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكه بها . من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع هو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه.[1]

ويأتي قصص الأمم السابقة في القرآن كذلك للتأسي بصالح أحوالهم.

فالقصة هدف ومقصد قرآني في فكر ابن عاشور وظيفتها إعادة صياغة الإنسان وترسيم نهجه على مسلك من سبق لتجنب السبيل المعوج وترسم السبيل القويم .

من ذلك تعليق الشيخ على قصة البقرة في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى

([1]) التحرير والتنوير 64/1

لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[1]

قال عنها الشيخ: تكليف لقصد أن الآية سيقت مساق الذم لهم وعدت القصة في عداد قصص مساويهم وسوء تلقيهم الشريعة بأصناف من التقصير عملاً وشكراً وفهماً[2]

فالقصص القرآني كما يراه ابن عاشور أن الغاية منه لا تقتصر على حصول العبرة والموعظة بل تتجاوز ذلك إلى إرشاد الأمة وتعريفها وتعريفها بتاريخ من سبقها من الأمم ولكي تنشئ في المسلمين همة السعي إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم[3]

والقصة لا تحقق هدفها إلا إذا كانت واقعية غير مخترعة كما قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ (يوسف/ 111)، أي لأن ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة مخترعة. ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبراً عن أمر وقع، لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتب طبيعي فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها كلما حصلت في الواقع، ولأن حصولها ممكن إذ الخارج لا يقع فيه المحال ولا النادر وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والتكاذيب فإنها لا يحصل بها اعتبار لاستبعاد السامع وقوعها لأن أمثالها لا يعهد، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجن والغول عند العرب وقصة رستم وأسفنديار عند العجم، فالسامع

([1]) الآية 67 سورة البقرة
([2]) التحرير والتنوير 552/1
([3]) إسلامية المعرفة – سامرالرشواني – مرجع سابق ص91-92

يتلقاها تلقي الفكاهات والخبالات اللذيذة ولا يتهيأ للاعتبار بها إلا على سبيل الفرص والاحتمال وذلك لا تحتفظ به النفوس.

وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [سورة يوسف: 3] فكما سماه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية تعريضا بالنضر ابن الحارث وأضرابه.

ومثال مختصر دلالة على مذهب الرجل ومنهجة في تقصد القصة:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (الكهف/9)

(أم) للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض . ولما كان هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها لم يكن هذا الانتقال اقتضابا بل هو كالانتقال من الديباجة والمقصود على أن مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف/6) ، إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالا لإمكان البعث.

وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أن الأولى لهم الاتعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها. ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم

بقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الكهف/ 10) ، فأعلم الناس بثبات إيمانهم بالله ورجائهم فيه وبقوله ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف /13) ... الآيات. الدال على أنهم أبطلوا الشرك وسفهوا أهله تعريضاً بأن حق السامعين أن يقتدوا بهداهم.

لا يخفى أن ابن عاشور يقرر بذلك مقصدا هاما من مقاصد القران وهو القصص وأخبار الأمم.

المقصد السادس

التعليم بما يناسب حال المخاطبين

أي ما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب.

وفي قوله تعالى في سورة البقرة:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾[1]

يقول ابن عاشور انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب ومن أجل ذلك لم يدع اليهود إلى توحيد ولا اعتراف بالخالق لأنهم موحدون ولكنه دعاهم إلى تذكر نعم الله عليهم وإلى ما كانت تلاقيه أنبياؤهم من مكذبيهم، ليذكروا أن تلك سنة الله وليرجعوا على أنفسهم بمثل ما كانوا يؤنبون به من كذب أنبيائهم ببشارات رسله وأنبيائهم بنبي يأتي بعدهم

وقد أفاض القرآن في ذلك وتدرج فيه من درجة إلى أختها بأسلوب بديع في مجادلة المخاطبين وأفاد فيه تعليم المسلمين حتى لايفوتهم علماء بني إسرائيل قال تعالى :﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [2]

([1]) الآية 40 سورة البقرة
([2]) الآية 197 سورة الشعراء

فقد كان العلم يومئذ معرفة التشريع ومعرفة أخبار الأنبياء والأمم الماضية وأحوال العالمين العلوي والسفلي مع الوصايات الأدبية والمواعظ الأخلاقية ، فبذلك كان اليهود يفوقون العرب ومن أجله كانت العرب تسترشدهم في الشئون وبه امتاز اليهود على العرب في بلادهم بالفكرة المدنية.

وكان علم عامة اليهود في هذا الشأن ضعيفا وإنما انفردت بعلمه علماؤهم وأحبارهم فجاء القرآن في هاته المجادلات معلما أيضاً للمسلمين وملحقا لهم بعلماء بني إسرائيل حتى تكون الدرجة العليا لهم لأنهم يضمون هذا العلم إلى علومهم اللسانية ونباهتهم الفكرية فتصبح عامة المسلمين مساوية في العلم لخاصة الإسرائيليين ، وهذا معنى عظيم من معاني تعميم التعليم والإلحاق في مسابقة التمدين.[1]

والسؤال هل استمر الحال بالمسلمين كذلك وهل التزموا بما أراده لهم أم ضيعوا ذلك وأصبحوا عالة على غيرهم في شتى مجالات الحياة ؟؟ .

وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر. ثم نوه بشأن الحكمة فقال :

([1]) التحرير والتنوير 1/ 245

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [1]

وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم. وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2]

فبالتفكر والتدبر في آيات الله في الأنفس والآفاق ، وبالفهم والتعقل لآيات القرآن الكريم تزكو النفس وتسمو على مدارج هذه الكلمات حتى تكون مع الأبرار.[3]

والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع .. ومرجعها القرآن الكريم الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول ، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق ، كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان ، والعقول ، والأنساب والأموال.

(1) الآية 269 سورة البقرة
(2) الآية 53 سورة فصلت
(3) التفسير القيم – تحقيق: الشيخ محمد حامد الفقي – طبعة دار الكتب العلمية ،بيروت ، 1398هـ 1/ 511

المقصد السابع

المواعظ والانذار والتحذير والتبشير

وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين ، وهو ما يسمى بباب الترغيب والترهيب.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾{التوبة:122}

يقول الشيخ ابن عاشور: وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها ... وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي ... فأفاد مجموع الكلامين أن النفر للغزو واجب على الكفاية ... وأن تركه متعين على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم في وقت اشتغال الطائفة الأخرى بالغزو.[1]

[1] التحرير والتنوير باختصار 11/59-60-61

وبما أن عملية الوعظ ترجع إلى الجانب التربوي من وظائف النبوة المذكورة في الآية ، كما أن عملية الإرشاد ترجع إلى الجانب التعليمي منها؛ فإن العمليتين معا تعتبران سيفا ذا حدين: قد تؤديان بالناس إلى زكاة في الأنفس، وصلاح في الأخلاق، واستقامة في المفاهيم والمواقف والتصورات، كما قد تؤديان إلى عكس ذلك تماماً! و ذلك إذا تصدى لهذا الشأن من ليس من أهله، خرق قواعد العلم و أصول الأدب في شأن الوعظ والتعليم.

إن الغاية من الوعظ والإرشاد هي تحقيق تنمية روحية للمؤمن؛ بنقله من حال الغفلة إلى حال الذكرى، أو بترقيته إلى مدارج الإيمان تذكرةً وتربية. ومن هنا ارتبط مصطلح «الوعظ» في القرآن بهذه الغاية تصريحاً، كما أن هناك ثمة علاقة بين المواعظ والأحكام كما في قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (سورة الطلاق/2) .

يرى العلامة ابن عاشور أن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأحكام التي فيها موعظة للمسلمين من قوله: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: 1]، إلى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ .

والوعظ : التحذير مما يضر والتذكير الملين للقلوب وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ في سورة البقرة:[232] وعند قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ في سورة النور[17]. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق /3).

اعتراض بين جملة {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} وجملة {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ} [الطلاق:4] الآية، فأن تلك الأحكام لما اعتبرت موعظة بقوله: {ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} أعقب ذلك بقضية عامة، وهي أن تلك من تقوى الله تعالى وبما لتقوى الله من خير في الدنيا والآخرة على عادة القرآن من تعقيب الموعظة والترهيب بالبشارة والترغيب.

ولما كان أمر الطلاق غير حال من حرج وغم يعرض للزوجين وأمر المراجعة لا يخلو في بعض أحواله من تحمل أحدهما لبعض الكره من الأحوال التي سببت الطلاق، أعلمهما الله بأنه وعد المتقين الواقفين عند حدوده أن يجعل لهم مخرجا من الضائقات شبه ما هم فيه من الحرج بالمكان المغلق على الحال فيه وشبه ما يمنحهم الله به من اللطف وإجراء الأمور على ما يلائم أحوالهم بجعل منفذ في المكان المغلق بتخلص منه المتضائق فيه.

ففي الكلام استعارة أن إحداهما ضمنية مطوية والأخرى صريحة وشمل المخرج ما يحف من اللطف بالمتقين في الآخرة أيضا بتخليصهم من أهوال الحساب والانتظار[1].

على ضوء هذا تصير المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير مقصداً من مقاصد القران الكريم.

❁❁❁

[1] التحرير والتنوير (ج279/28)

المقصد الثامن

الإعجاز بالقرآن

الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي ، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدى لأجله بمعناه والتحدي وقع فيه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة/23).

يقول العلامة ابن عاشور: وخلاصة القول فيه أن رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام بنيت على معجزة القرآن وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال ومع ناس خاصة ونقل بعضها متواترا وبعضها نقل نقلا خاصاً ، فأما القرآن فهو معجزة عامة ، ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة ، وإن كان يعلم وجه إعجازه من عجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله فيغني ذلك عن نظر مجدد ، فكذلك عجز أهل كل عصر من العصور التالية عن النظر في حال عجز أهل العصر الأول ، ودليل ذلك متواتر من نص القرآن في عدة آيات تتحدى العرب بأن يأتوا بسورة مثله ، وبعشر سور مثله مما هو معلوم ، ناهيك أن القرآن نادى بأنه معجز لهم ، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة 23-

24) ، فإنه سهل وسجل : سهل عليهم أن يأتوا بمثل سورة من سوره ، وسجل عليهم أنهم لا يفعلون ذلك أبدا ، فكان كما سجل ، فالتحدي متواتر وعجز المتحدين أيضا متواتر بشهادة التاريخ إذ طالت مدتهم في الكفر ولم يقيموا الدليل على أنهم غير عاجزين ، وما استطاعوا الإتيان بسورة مثله ثم عدلوا إلى المقاومة بالقوة. قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(سورة البقرة /23-24).

وقال:(قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (سورة يونس/38) ، وقال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (سورة هود/13-14) .

فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيهم عليها. [1]

وير ى ابن عاشور أن : من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه باسلوب جامع بين مقصديه وهما : مقصد الموعظة ومقصد التشريع ، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه

(1) التحرير والتنوير 102/1-103

وهو في هذا النوع يشبه خطبهم، وكان في مطاوي معانيهما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها ، هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والإيماء إلى العلل والمقاصد وغيرها[1] .و من ثم يرى ابن عاشور أن للقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب. فمنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة وقد نبه عليه العلماء المتقدمون . وأنا أضم إلى ذلك أن أسلوب الخطابة بعض المخالفة ، بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته ، وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام. وأعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية ، فلم يأت بعموميات شأنها التخصيص غير مخصوصة ، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة ، كما كان يفعله العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة. مثاله قوله تعالى: ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ (النساء/95) وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (القصص:50). فبين أن الهوى قد يكون محموداً إذا كان هوى المرء عن هدى وقوله:﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر: 2-3).

ومنها أن جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف وقد أومأ إليها في الكشاف إيماء. ومنها الأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة ،

---

[1] التحرير والتنوير 1/115-116

وفي تمثيل الأحوال ، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقودا من أدب العربية إلا نادراً ، كان في بعض الشعر كأبيات النابغة في الحية التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما في سورة الأعراف من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف:﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ (الأعراف: 44)إلخ وفي سورة الحديد ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (الحديد/13).

وإذا كنا نتحدث عن منهج ابن عاشور في تناول الإعجاز في القرآني كأساس ومقصد فقد ذكر ذلك مطولا في مقدمته العاشرة في التحرير والتنوير وكان لنا تعليق على منهجه في الرسالة المعنونة بـ(الشيخ محمد ابن عاشور ومنهجه في التحرير والتنوير) على أن هذا لا يمنع أن نشير إلى موقف ابن عاشور المقاصدي تحديدا هنا ؛ فهو يقف من هذه القضية موقف الخبير المبدع الذي تشبعت روحه وعقله بأدق خفايا الموضوع ثم أرسلها دررا قل من يجاريه في رصفها وصياغتها ومنها عظمة هذا العلم ومسوغات هذه العظمة مما تميز به من:

- بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ.
- ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام .
- ما أودع فيه من المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العقلية

والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر إن في عصر النزول أو بعده بعصور .

- أن القرآن معجز لأهل عصر نزوله إعجازا تفصيلياً ومعجز لمن يجيء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن وتعيين صرف الآيات المشتملة على هذا الإخبار إلى ما أريد منها. وهذا ملاك الإعجاز[1] بحسب رأي ابن عاشور.

وميزات كتلك التي حررها الشيخ : ألا تجعل من الإعجاز مقصداً !

❁❁❁

([1]) انظر: التحرير والتنوير(102-105)

أدوات ابن عاشور في تجلية المقاصد :

أولها العربية :

إذ لا يخفى على المطالع والقارئ لنتاج ابن عاشور العلمي والأدبي تلك الفصاحة الصافية والاهتمام الواعي والمستوعب والدقيق لكل ما يتعلق باللغة لفظاً ومعنى وما يلحق بهما من تصريف واشتقاق.

وبيان موقف ابن عاشور ومنطلقه اللغوي والبلاغي بحث يطول ، وقد تناولته في كتاب منهج ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير فمن أراد معرفة ذلك فليطلع عليه هناك ، وهو ما يبين لنا أحقية ابن عاشور واستحقاقه دون منازع أن يبحث في علم المقاصد إنطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء 195).

ففهم العربية مطلب أساس في فهم المقاصد. وعليه فهو يوظف اللغة توظيفاً دقيقاً حصيفاً لاستخراج وتجلية مقاصده .

ثانيها تقصيد النصوص والسور القرآنية .

وليس أدل على هذا من توظيف السور القرآنية كلها دون استثناء من خلال تفسير التحرير والتنوير لخدمة هذا الغرض وقد استخدم الشيخ منهجاً

تفسيرياً قصد منه تقصيد السور القرآنية وتجلية مقاصد القران وإبرازها وتحريرها في كل مجال يتضح لنا ذلك المنهج الفريد من خلال أغراض السور وفي كل سورة على حدة يتوقف ابن عاشور على بابها وقبل أن يشرع في شرح مفرداتها ومضامينها يقدم لنا مدخلا لمقاصدها تارة يسميها أغراضا وفي بعضها مقاصد على تنوع في عباراته فتارة يقول أغراض هذه السورة وتارة يقول أغراضها وتارة يقول مقاصدها وتارة يقول هذه السورة تضمنت كذا وكذا فلا مشاحة إذن أن يقال: مقاصد السور أو أغراضها.[1]

والتحرير والتنوير حافل من أوله إلى آخره بأغراض كل السور دون استثناء ولا شك كم تقدم أنه يعني بالأغراض المقاصد ومثال ذلك ما جاء في سورة الحجر والتي قبل أن يبدأ في شرحها يذكر أغراضها وتحت هذا العنوان يقول :

مقاصد هذه السورة :

- افتتحت بالحروف المقطعة التي فيها تعريض بالتحدي بإعجاز القرآن وعلى التنويه بفضل القرآن وهديه.
- إنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم.

1 أغراض السور في التحرير والتنوير – محمد بن ابراهيم الحمد – دار ابن خزيمة – المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولى1428هـ 2007م – ص5

- توبيخهم بأنهم شغلهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم
- إنذارهم بالهلاك عند حلول إبان الوعيد الذي عينه الله في علمه
- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم إيمان من لم يؤمنوا .

ويمضي في ذكر ما استنبطه من مقاصد السورة الكريمة كما هي عادته التي انتهجها في تفسيره[1]

ثالثها الملكة الفقهية :

إن الملكة الفقهية التي اتصف بها ابن عاشور من خلال دراساته التي تربى بها على مشايخه ثم تطبيقاته المختلفة إبان اشتغاله بالقضاء والافتاء استفاد بها أيما إفادة حين تناوله لموضوع مقاصد القران لاحتياجه إلى التعليل والتدليل وحسن النظر والتحليل

رابعها استخدام التأويل لاستخراج المقاصد

وهذا منهج دأب عليه الشيخ ابن عاشور وقد أشار ابن عاشور في مقدمته الأولى في التحرير والتنوير إلى الفرق بين التفسير والتأويل ، وخلاصة

[1] التحرير والتنوير 7/14

ما انتهى إليه باختصار:

[التأويل صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر محتمل لدليل فيكون هنا بالمعنى الأصولي ، فإذا فسر قوله تعالى:﴿يخرج الحي من الميت﴾ بإخراج الطير من البيضة ، فهو التفسير أو بإخراج المسلم من الكافر فهو التأويل].

والتأويل عنده إرجاع الكلام إلى الغاية المقصودة للمتكلم من معنى .

وهو كأصولي ينحى باللفظ في التفسير وفي إدراك مراد الشارع إلى صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر لدليل محتمل .

أو بمعنى آخر هو لا يقف عند ظاهر اللفظ إنما يغوص في استخلاص واستنباط أبعاده (المقاصدية) الكامنه في لب التأويل يوضحها ويجليها لتكون بارزة للعيان سعياً يقصد به أولاً رضا رب العباد في بيان مقاصده وتقريب العبد المقصود من مراد خالقه .

الخاتمة

- التفسير عند ابن عاشور خطوة أولى لتجلية المعنى أما التأويل فهو المعتمد علية للغوص على أبعاد النصوص القرآنية واستخراج المقصود يدعمه في ذلك مكنة لغوية وبلاغية وملكة في الدوران مع المعنى وتطويع اللفظ بأدلة شتى لا تخرج عن روح الشرع ولا تشذ عن مراد الشارع .
- انفرد ابن عاشور باتجاه مميز وطريقة خاصة في التفسير ، "الطريقة المقاصدية" أو الاتجاه المقاصدي" في التفسير. وتتجلى المقولة الأساسية لهذا الاتجاه في : توظيف جميع العلوم والوسائل والأدوات المعرفية المتوافرة في الكشف عن المقاصد القرآنية وإظهارها على أحسن وجه، تلك المقاصد المتمثلة في إصلاح الفرد والمجتمع والأمة وهدايتهم.
- إذا تطرق ابن عاشور إلى مسألة في التفسير العلمي مثلا أو ما يصح الاستعانة به من العلوم ، كان المعيار المحكم لديه هو خدمة المقاصد القرآنية . وضرورة تناول القرآن من مختلف جوانبه، وبمختلف الوسائل حتى تتبين جميع مقاصده على حد سواء.
- الشيخ ابن عاشور عندما يفسر يستحضر مقصد الشارع لدى تفسيره للآية أو النص القرآني ولا يقف عند حد الأمر والنهي ، أو الحكم الشرعي المستنبط من الآية.

- الإنسان وصلاحه محور مقاصد ابن عاشور فالصلاح والإصلاح هي مادة ولب المقاصد التي حدده الشيخ الكون وصلاحه والإنسان وإصلاحه وكل ما جاء في مقاصده من أخلاق وتهذيب وقيم تربوية هي المقصد الأعلى من قوله تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وذلك لعمارة الكون.
- وابن عاشور كما يرى صاحب مقاصد القرآن[1] حصر المقاصد في ثلاثة أوجه هي :
  - تحقيق الصلاح الفردي .
  - تحقيق الصلاح الجماعي .
  - تحقيق الصلاح العمراني .

والعمران لا يتم بدون إنسان فرد وفي جماعة .

ولا تناقض بين رؤيتى ابن عاشور لمقاصد القرآن إذ هذه الرؤية رؤية إجمالية ولذا يقول عنها المقصد الأعلى[2] وتلك رؤية تفصيلية ولذا قسمها إلى ثمانية كما تقدم بيانه.

❁❁❁

(1) عبد الكريم حامدي – مقاصد القرآن- مرجع سابق.
(1) التحرير والتنوير 1 ص 28 .

المراجع

- ابن عاشور ، محمد الطاهر- التحرير والتنوير - الدار التونسية للنشر – تونس 1984 .
- ابن عاشور ، محمد الطاهر - مقاصد الشريعة الإسلامية - دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – الطبعة الثانية -1428هـ 2007م.
- أبو عاضي، د.محمد سالم - مقالتان في التأويل - دار الفارابي الطبعة الثانية.
- إسلامية المعرفة – مجلة فكرية فصلية – المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص90- العدد23- السنة السادسة – 1421هـ -2001م .
- حامدي، د. عبد الكريم - المدخل إلى مقاصد القرآن – مكتبة الرشد – الرياض – الطبعة الأولى 1428هـ 2007م
- الحمد، محمد بن ابراهيم - أغراض السور في التحرير والتنوير – دار ابن خزيمة – المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولى1428هـ 2007م .
- شاكر، أحمد محمد - مختصر تفسير ابن كثير، طبعة دار التراث العربي للطباعة والنشر.
- الشوكاني ، أبو علي - فتح القدير في الجمع بين الرواية والدراية في فن التفسير – دار الحديث 2006م.
- عزام، أ. عبد الرحمن - الرسالة الخالدة - إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - الكتاب السادس عشر، 1384هـ/1964م.
- الفقي، محمد حامد - التفسير القيم لابن القيم - طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1398هـ .
- القرطبي ، أبو عبد الله - الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب 1981م.
- النورسي، بديع الزمان سعيد - إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز - ترجمة: أ.إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، 1994- دار سوزلر، القاهرة.